

## ثروتنا الخلقية

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب

ثروتنا الخلقية تعبير غير مألوف وإنما المألوف أن يتكلم الناس عن الثروة العقارية ، أو الزراعية أو المعدنية ، فيكون كلامهم مفهوما .

ويتعدون أحيانا عن الثروة الفكرية أو العلمية أو الفنية — يريدون آثار العلماء والأدباء وأصحاب الفنون ، مما نقرؤه في الكتب والصحف ، أو نشاهده في المعارض والمتاحف . ولكل أمة نصيبها من هذه الثروات .

أما " الثروة الخلقية " فتعير أزعم أنه جديد ، أتق في روعي من حيث لم أحسب . ذلك أنني أردت اختيار موضوع لهذا المقال ، فلدت بضعة أيام كلما عرض لي موضوع ، زهدت فيه حتى صحت ذات صباح ولساني يقول — " ثروتنا الخلقية " ، فأيقنت أن النفس الباطنة كانت يقظى تشتعل وتبحث ، حتى اهتدت الى هذا الموضوع أو هذا " الاكتشاف " .

وليس جديدا أن يبحث الباحث في موضوع الأخلاق ، فهو مبحث الناس في جميع الأجيال ، وإنما الجديد ، فيما أعلم ، أن تسمى أخلاق الأمة أو أخلاق الفرد " ثروة " مع أن الأخلاق لا توزن كما يوزن القطن ، ولا تكال كما يكال القمح ، ولا تعد كما تعد الجنيهات أو ما يمثلها من الأوراق . والأخلاق كذلك لا تحصى كما تحصى مؤلفات العلماء أو آثار الأدباء ورجال الفن في كل جيل . إذ الأخلاق لطائف نفسية مودعة في القلوب والصدور ، بل القلوب والصدور التي نعرفها بين الجوائح ليست أوعية للأخلاق إلا على سبيل المجاز ، فكيف إذن نسمى هذه الوظائف المعنوية ثروة ؟

لكن نفسى الباطنة احتجت على هذا المنطق . قالت " سبحان الله ! ، ألا يكون ثروة إلا ما يؤكل ويشرب ويوزن ويكال ويكتب ويقرأ ؟ ! إذن ماذا همول في الكهرباء ؟ وهل تحسبها الخواص مقطوعة عن الأسلاك ؟ هذه القوة التي تكون نورا ففضى ، وتكون نارا فتحرق ، وتكون حياة لكثير من المرضى ، وتكون موتا يعاقب به القتل في أمريكا ، هذه القوة المسائلة التي تداربها المصانع في جنبات الأرض ، ويتضاعف بها نشاط العمران كل يوم — ألا تسميها ثروة ، لا لسبب سوى أنك لا تعرفها إلا بآثارها ؟ وهى مع ذلك تقاس . نعم لا توزن بالرطل ولا تكال بالإردب ، لكنها تقاس بالكيلوات ، وتحصى بالعداد ويُسكى غلاؤها ويسرق تيارها ويرفع الأمر فيها الى القضاء .

الأخلاق ثروة للأفراد والأمة ، وإن تكن صفات معنوية موطأها النفوس . بل هي لا تكون ثروة ، إلا إذا كانت النفوس موطأها . ولو قرأ قارئ كتب الأخلاق من عهد أرسطو إلى عهد بن مسكويه ، إلى عهدنا الحاضر ، لمجرد الإلمام والاطلاع ، دون التخلف بما فيها والاطمئنان بمعانيها ، لظل ضميره فقيرا إلى الأخلاق . وإن امتلأ رأسه بحوثها ومسائلها . كدروس القرآن الكريم من حيث فصاحة بياحه ، وإعجاز أسلوبه ، أو من حيث أحكام لفقه وعلم المواثيق — قد يخرج من دراسته قرآني البيان دون أن يتخلف بأخلاق القرآن ، وقد يخرج من دراسته أعلم العلماء بالفقه والتورث دون أن ينز قلبه بروحية القرآن .

وإنما ضربنا هذه الأمثال برهانا على أن الخلق موطأه النفس والضمير ، وليس موطأه الذهن والدماغ كالحساب والهندسة . فكم من رءوس فياضة بالمعارف تصحبها نفوس فياضة بالزبد ، وكم من رءوس لا تكاد تعرف أحوال الفراءة والكتابة ، تصحبها نفوس كبيرة وهم عالية وخلق كريم .

لم يكن محمد رسول الله يقرأ أو يكتب . ولم يكن يقرأ أو يكتب محمد كبير بيت مصر المالك .

لكن محمدا رسول الله أحيا الإسلام بوحى ربه ، لأنه كان على خلق عظيم ، بشهادة أصدق القائلين ، وشهادة نوره الساطع في العالمين . ومحمد جد الفروق ، أحيا مصر الحديثة لعهد ، بوحى من ضميره ، لأنه كان عظيم الخلق . بشهادة ما بعث في مصر من عظمة لو اتصلت حلقاتها ، لكانت أمنا اليوم من كبريات الأمم .



ثروة مصر الخلقية ، تتألف من أخلاق أفرادها ؟ كما تتألف من أموالهم ثروتها المالية . وإلى لأخشى أن تكون ثروتنا الخلقية ، مرهقة بالديون ، مهددة بالإفلاس — كثروتنا العقارية . وليس الدائنون في هذا المجال المصنوي — بنوكا ومصارف ، أو مستغلين دخلاء يرهقوننا بالربا الفاحش . إنما الدائن الذي يهدد كياننا الأدبي ، إنما الغريم الذي يطارد في نفوسنا أكرم عناصرها ويكاد يخنق في ضمائرنا أسمى معاني الرحولة ، إنما العدو اللدود الذي يفتك بجزءاتنا إلى الخلق العظيم — إنما ذلك الدائن المرهق ، وذلك الغريم المنح ، ذلك العدو اللدود ، هو الأنانية ، هو الإفراط المنكرف في حب الذات ، هو استهانتنا المنكرة بواجباتنا ، واستهانتنا المنكرة بمقوق من سوانا ، ما دام في الأمر أرضاء لشهواتنا أو راحة من عانتنا أو تحقيق لمنافعنا .



تسأل: الشاب ، بل الكهل الفنى المستهتر - ماذا يتمتع من الزواج؟ - فيجيبك مالى  
ولهذه التعة . ان فى المتاع لمباح متسعا لأمشلى .

وما هو بمباح إلا عند من أسقط عن كاهله واجب المروءة ، وواجب بناء الأسرة ،  
وواجب تقديس الحرمات ، وأسقط عن كاهله حقوق ذويه من العشرة والأهليين .

فإن يقصد بالمباح ، تلك المبادىء التى إن أجازها القانون ، فقد لعننا الله ، فياله من  
متاع وبنى ، تطيب لهم خباثته حتى أرذل العمر .

لكنها الأنانية ، فيها إرضاء لشهواته ، وإراحة له من عناء الزوج والولد .

تسأل الموظف - أو نقول بعض الموظفين ، حتى لا يفضب الجميع - ماذا يشغل بانيك  
ويملك عليك أحلامك بالليل ، ولبك بالنهار؟ فيجيب " درجة رابعة خالية " تسأله " وهل  
أنت أحق زملائك بها؟ " يجيب كلا - اذا كانت المسألة بالأقدمية . لكن المسائل كلها  
اليوم محسوبيات وصلات ووسائل ووسائل " ويكاد يبكي المسكين ، ويسب الأويين  
والآخرين ، ويدعو على الدنيا بالحراب - وليته صاحب حق . . . ولكنها الأنانية .

الأنانية هى التى تزين للطالب أن يظن العلم للشهادة ، لا الشهادة للعلم ، حتى إذا  
أحرزها ، اتخذها صكاً على الدولة يتقاضى به الجلوس طيلة حياته إلى المكتب . بأجر محدود  
ولكنه " مضمون " .

فإن الله الأنانية فهى التى تزين للصانع أن يكسل ما استطاع الكسل . وأن يقصر فى  
الافتقان ما استطاع التقصير .

هى التى تزين للتاجر أن يجمع أرزاق الناس بمن رخيص ، حتى اذا صرخت حاجتهم  
إليها - باعهم بإحدا بأفخس الأرباح ، لولا حماية التسعيرة . التى يفا فيها كلما استطاع .

قاتل الله الأنانية . هى التى تزين لشاهد الجريمة أن يكتم شهادته عن القضاء ، رهبا  
أورعباً ، فتحفظ أكثر القضايا . وتهدر دماء المئات من الضحايا كل عام .

هى التى تزين للأدنياء شهادة الزور ، وللفئاك قتل الأبرياء بمن معلوم . قاتل الله الأنانية  
هى التى فككت أواصر الجماعة المصرية فى نليت والنادى ، وفى المدينة والقرية . وكلما اجتمع  
ولو شريكان اثنان فى عمل ، قطعت ذات بينهما كأسرع من قطع السكاكين .

هى التى تزين لصاحب الأقدنة الألف ، أن يبذل عفا لثوره ، أضعاف ما يبذل أبرا  
لعامله .

قاتل الله الأنانية فهى التى تغفل يد العنى عن إعانة الملهوف ، إذ نزلت به التكتبات  
ومزقته لصواعق ،

هى التى تمزق الجماعة أحزابا والحزب شيما - والشعبة آحادا متحاسدين . هى التى تجعل المناصب مغانم ، وتجعل المغانم قسمة بين المحظوظين . هى التى تجعل الكبير مزهوا بطرا ، وتجعل الصغير حاسدا ضجرا .

قاتل الله الأناثية ، فهى التى تكاد تحصل كل مصرى على أن ينسى المصرى فى وقت محنته ، حتى لتخشى أن ينسى الجميع هذا الوطن ، إن حلت به الكارثة .



إن لنا فى فرنسا ضليمة الأمس وضحية اليوم - لعبرة أى عبرة .

ثروة فرنسا فى المال لا تحصى . زراعتها ، معادنها ، صناعاتها - كانت مشار حسد النظائر والبخارات . علومها - آدابها فنونها "مثل عليا للبعقرية" لكنها انهارت بعامل واحد صارح به الملائ شيوخها "بيتان" .

قال وتكاد عيناه تبيض من الحزن وهو كظيم ، إن فرنسا انهارت ؛ لآفة فناكة طفت فيها على الأخلاق . ولم تكن تلك الآفة سوى الأناثية - أى حب النفس ونسيان الوطن . ولو تلوت عليكم كلامه المحزن فى هذا المقام لأخذكم فى الخوف على مصر مثل ما يأخذنى . ذلك أن بطل فرنسا بالأمس ، والفارق فى ويلاتها وكروبها اليوم - يصف الأخلاق التى أودت ببلده العظيم ؛ وكأنما يصف الأخلاق فى مصر اليوم .

أفلا يحق لنا إذن أن نعتبر ؛ أفلا يحق لنا أن نوقن من أن ثروة الأخلاق إذا أفلست لم تفن عنها ثروة المال ولا ثروة العلم والأدب فتبلا ، وإلا لأنقذت فرنسا قناطيرها المنقطرة وأدبها الأسمى وفنها الرفيع ؟

أليس يحق لنا بعد هذه العبرة الفاجعة ، أن نسمى أخلاق الأمة ثروة ، وأن نرفعها فوق ثروة العلم وثروة المال لأنها ثروة النفس وثروة الضمير وثروة الروح .



إذا كان مصرع فرنسا آية رهيبه على أن الأمم الأخلاق وجودا وعدما ، كما قال شوق وأيدته فاجمة فرنسا واعتراف بيتان ، فهناك آيتان أحرى أن ينساها التاريخ :

أريد آية الأخلاق فى بريطانيا العظمى ؛ وآية الأخلاق فى اليونان الباسلة المتواضعة ! من كان يوقن بعد انهيار فرنسا ، بل قل بعد انهيار أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية كلها - أن تصمد تلك الجزيرة العجيبة هذا الصمود العجيب . إنى لا أريد أن أعرض لشؤون الحرب ولا لشؤون السياسة فى هذا المقال ، لأنى أنشره فى مجلة الشؤون الاجتماعية وما أحب أن أعدل بأعائها عن شؤون الاجتماع .

غير أن اتزاع الشواهد من مسالك الأمم في الخطوب مطلب أساسي لكل من يبحث في شؤون المجتمع ، وما أظن في الدنيا انسانا ، ولو كان هذا الانسان ألمانيا أو إيطاليا سلت من نفسه الأحقاد إلا يعني رأسه إجلالا لعظمة الثروة الخلقية التي تجلت في بريطانيا واليونان .

أما اليونان فروعة موقفها ، حديث القاضي والدان ، وإن استطاع الايطاليون في القند ما لم يستطيعوه معها بالأمس ، فقد سجلت اليونان لنفسها صفحة مجد لن تزول .  
وأما بريطانيا فالحديث فيها أطول وأصنى مما تتسع له السطور الباقية .

لكنني أظن إعجابي على مسمع من أبناء وطني جميعا — بالبطولة التي أدهش له طائون بها الدنيا في ستة شهور ، لا من حيث الاستماتة والاستبسال في البر والبحر والجو ، بل كذلك وفوق ذلك من حيث اصطبار المدنيين للكاره الجلى ، وخروجهم عن أكثر أرواقهم تمويلا لحرب قال رئيس حكومتهم إنها قد تطول سنين .

وما أنس لا أنس حملة النواب البريطانيين والصحف البريطانية على وزير مالية إنجلترا يوم أعلن في مجلس العموم أنه رأى جعل ضريبة الدخل نسبة تتراوح بين خمسين وثمانين في المائة من رزق كل مواطن . وما أنس لا أنس حملة النواب والصحف عليه في ذلك الحين ، لا لأنه اشتط وأسرف في تفدير الضريبة ، بل لأنه بالغ في القناعة والإشفاق ، ثم تجاوزت الأصدقاء في أنحاء البلاد بأن الأمة على استعداد لبذل المزيد فداء لبريطانيا العظمى — نعم العظمى ، لا بالأساطيل ، فغيرها أساطيل أحدث ، ولا بالجيش فغيرها جيوش أخفم ، ولا بالطائرات فغيرها طائرات أكثر — ولكن بريطانيا العظمى بهذه الأخلاق — بهذه الثروة المعنوية التي لا تفتى على الإنفاق .



ليس رجالا من لا يعجب بالرجال ، ولا عظميا من لا يعجب بالعظمة . وأمتنا المصرية مهما أخف عليها عواقب الأناثية — أمة عريقة الذنب كريمة العنصره فيها عظمة وفيها رجال . والله أدعو أن يوفقنا للعمل على تنمية ثروتنا الخلقية بقدر ما نعمل على ترقية ثروتنا الزراعية والعالمية ، أو أضعاف ذلك ، وأن يجعل اهتمامنا بمقاومة "الأناثية" — أعني دودة الأخلاق — بقدر اهتمامنا بمقاومة دودة القطن وسائر السموم والحشرات .

محمد توفيق دياب